أنا والآخرون: ثقافة الائتلاف والاختلاف

عبد الله المقبالي

في مقالة له بعُنوان «التعايش والتسامح في سلطنة عمان» -نشرته جريد الجزيرة السعودية، في عددها الصَّادر يوم السبت ٢١ فبراير ٢٠١٥م- حَدَّث الكاتب السعودي وائل القاسم متابعيه عن ثقافة الائتلاف التي تسكن المجتمع العماني، مُبينا أنَّ التسامح ثقافة يحملها الأفراد، ويحميها وعيهم الجمعي. بالصدفة، اطَّلعت على هذا المقال إبان قراءتي لمقال آخر بعنوان «التسامح والثقافات» للأستاذ السابق في الجامعة اللبنانية عاطف علبي، والذي نحن بصدد الاطلاع عليه وعمَّا يحويه من تأصيل لثقافة التسامح، وشرح لمعانيه وتبيان لمفاهيمه.

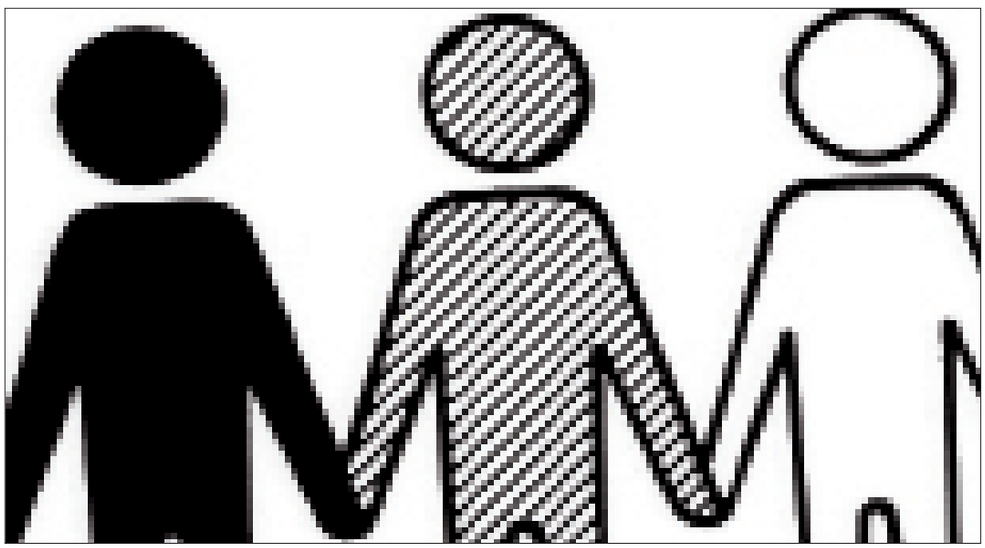

فاستنتجت من الأول أهمية الحفاظ على هذه الثقافة، ومدى حاجتنا إليها في المجتمعات الإسلامية والعربية، ومن المقال الثاني أهمية اتباع هذا التسامح بقوة تحميك من تطرف اللاتسامح.

يفتتحُ عاطف علبي مقاله بمقولة شائعة ترجِّح قابلية الشعوب المتمدنة والمتحضرة والمثقفة للتسامح، ثم يفترض أن علاقة ما ناشئة بين الثقافة والتسامح؛ حيث إنَّ المساحة الثقافية هي التي تشكل الإطار التاريخي للتسامح. ولتوضيح ذلك يرى الكاتب ضرورة العودة إلى مصطلحي الثقافة والتسامح.

... إنَّ البحثَ في كلمة تسامح باللاتينية (Tolerantia)، وبالفرنسية (Tolerance)، وبالإنجليزية (toleration)، تعني لغويا التساهل، وفق رأي الكاتب، بينما تعني عند علماء اللاهوت الصفح عمن اقترف جرما بحق الله. ثم يؤكد الكاتب أنَّ التساهل هو عينه الذي نسمه بالتسامح ومن معانيه: "إنه سلوك شخص يتحمل، دون اعتراض، الهجوم على حقوقه في الوقت الذي يمكنه فيه تجنب هذه الاساءة". ثم ينقل لنا تعريفا لأديب إسحاق فيقول: أما أديب إسحاق فيرى فيما نسميه التساهل وهو التسامح: "رضا المرء برأيه معتقدا الصحة فيه محترما لرأي غيره كائنا من كان، رجوعا إلى معاملة الناس بما يريد أن يعاملوه به؛ فهو لا يمنع الناس من إظهار ما يعتقدون". ثم يسوق الكاتب تعريف قاموس لاروس الموسوعي للتسامح الذي ينظر إلى التسامح كونه تقبُّل طرف ما طرق تفكير الآخرين وطرق حياتهم رغم اختلافهم عمَّا لديه. وبعد ذلك، ينتقل الكاتب إلى تأريخ التسامح، ساعيا للكشف عن توقيت ظهور التسامح، والكيفية التي ظهر بها، والأسباب التي دفعته للظهور. والكاتب هنا إذ يؤرخ للمصطلح لا يؤرخ للمفهوم، وهو يربط ظهور المفهوم بالحروب الدينية إبان القرن السادس عشر؛ إذ يرى الكاتب أنَّ الدعوة للتسامح تأتَّت عن أزمة الإصلاح وفي غمرة الحروب الدينية. وأن هذا التعريف بدأ دينيا وانتهى مدنيا؛ كون الدولة هي صاحبة السلطة. وأنه ليس من صالح الدولة إرضاخ المعتقدات الدينية لصالح معتقد واحد؛ لأنَّ هذا الرضوخ لا ينتج إلا اعترافات يحدوها الرياء والكذب. إنَّ التسامح ما هو إلا "الاحترام اللطيف لمعتقدات الآخرين؛ كونها تعد إغناءً للحقيقة الكاملة". وفي ختام هذا الجزء من بحثه الذي خصَّصه لتعريف التسامح، يخلص الكاتب إلى أنَّ التسامح هو من أهم القيم التي يتطلبها التاريخ الحديث، في عالم يتجه إلى الوحدة، فإن تلاقي المتنوعات يمكن أن يكون قتالا إذا لم تأتلف بغرض الاغتناء المتبادل للخلافات فيما بينها. لكن عاطف علبي قبل أن ينتقل بنا إلى تعريف الثقافة يقتبس مقولتان لديدرو وميرامبو، وهما مثقفان فرنسيان عاشا في القرن الثامن عشر، مفادهما أن المتسامح مادام ضعيفًا فإنه من المحتمل جدًّا أن يُصبح غير متسامح إذا ما تزايدت قوته، والتسامح هو نظام المقهور الذي يتركه عندما يغدو قويا.

أما في الجزء الثاني من بحثه، فيناقش الكاتب مفهوم الثقافة؛ فهي مجموع المعارف المكتسبة والتي تسمح بتطور الذائقة وحس المحاكمة النقدية، ويصفها هريوت بأنها «ما يبقى بعد أن ننسى كل شيء». ويرى الكاتب أنه مما يلفت النظر أن من تعريفات الثقافة أنها هي مجموع المظاهر الثقافية لحضارة ما، بمعنى أن الثقافة ليست هي الحضارة، وهذه هي نظرة المثالية، وليس عنها ببعيد نظرة الماركسية للثقافة. صحيح أنَّ الماركسية لا تقر بفصل المثالية المطلق، لكنها ما زالت تحتفظ بحق الفصل النسبي بين الثقافة والحضارة.

وبعد هذه المقدمة الطويلة، يلج الكاتب للموضوع محاولا تتبع العلاقة الجدلية بين الثقافة والحضارة والتسامح؛ حيث إنَّ هناك مجموعة من الشعوب لا تزال يتملكها نوع من عدم اليقين في تشكل الدولة- الأمة؛ حيث تلا نشوء بدء عملية الديمقراطية بعض خيبات الأمل كما حدث في أوروبا الشرقية وإفريقيا. بعدها، تنقضُّ القبيلة على الدولة، وتتحوَّل الانتخابات إلى مجرد إحصاء إثني. لكن الكاتب يرى عاملا آخر غير الثقافة كان مسؤولا أيضا عن تأجيج الصراعات، ألا وهو العامل الاقتصادي أو الاستعماري الجديد، والذي لعب دوره السلبي في تأجيج القوميات القبلية. إنَّ المتوجسين من التسامح على جزء من الصواب -حسب رأي الكاتب- إذ ليس كل التسامح حقيقيا وإيجابيا، على اعتبار أنه يوجد تسامح سلبي وهو الذي يقوم على قبول الاختلافات بمعنى القبول بها طالما لا تزعجنا كثيرا أو لا تمسنا مباشرة. إذ إنَّ هذا النمط من التسامح قد يقبل بما لا يمكن القبول به، أو أنه قد يُوصل صاحبه إلى اللامبالاة. ولا أرى وجها لتقسيم التسامح إلى سلبي وإيجابي، فما اعتبره الكاتب إيجابيا فذلك هو التسامح ولا غيره، أما اللا مبالاة وإهدار حقوق المجتمع فما ذلك إلا اعتداء على المجتمع لا يقل إصرا عن التشدد والتزمت ورفض الآخر؛ وبالتالي هو ليس تسامحا ولا يدخل في بابه؛ لذلك أصاب الكاتب في وصف التسامح بالحقيقي، لكن ليس تماما حين يتعلق بالإيجابي أو السلبي.

وفي جانب آخر من البحث، يرى الكاتب أنَّ بعضَ الشعوب لهم خاصية ثقافية بارزة؛ بحيث تعمل كآلات حقيقية لصنع التضامن والتماسك في استقبال الآخر، وهذه الخاصية -حسب عاطف علبي- تعمل بشكل واضح كوسيلة للاستقبال وتناغم الخلافات، وهنا يضرب لنا الكاتب مثالا يتعلق بسعي القبائل إلى التماسك والاتحاد، وفي إطار سعيها لهذا التماسك تتقبل الخلافات الداخلية، لكن هذا الأمر يتم في مستوى المؤتلف. أما في مستوى الآخر المتعدد المختلف، فإن أعضاء القبيلة لا يقبلون بالغيرية على اعتبار أنه لابد من بقاء الاختلاف الحقيقي.

وفي الخاتمة، يرى الكاتب أن التسامح الحقيقي يقوم على العقل ومنه يضوع شذى الحرية الديموقراطية، وتغوص جذوره في التسامح المطلق، وأن يقظة العقل تثمر تسامحا، مع التنبيه أنه لا يجوز التسامح مع اللا تسامح، ومع التسامح والدعوة إليه نتذكر معا قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين».

abdullah-maqbali@hotmail.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.
مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ – ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net